

"وما الخيل إلا كالصديق قليلة"

صحبة الخيل في الشعر العربي

أن نصادق بشرًا أمثالنا، نستعين بهم على مواصلة الحياة، ونشاركهم أفكارنا ومشاعرنا وأحداث حياتنا، ونقاسمهم الأفراح ونستند عليهم في المصاعب، فذلك كله مما نشأت عليه البشرية، وألفته واستكانت إليه عبر التاريخ.

د. محمود الضبع

أما أن يصادق الإنسان كائنًا آخر غير بشري، فذلك مما يستدعي التأمل، ويستلفت الانتباه، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الإنسان بوصفه كائنًا اجتماعيًا، يميل على نحو فطري إلى الألفة مع الآخرين والائتناس بهم، كما يميل إلى الألفة مع الكائنات والأشياء المحيطة به، مما يبني جسور المودة والاعتياد والمشاعر المتبادلة معها، وهو ما نشهده في حياتنا المعاصرة من أشكال وأنواع صداقة الإنسان للحيوانات والطيور والأسماك والزواحف، وبخاصة القطط والكلاب بوصفها الأكثر انتشارًا والأعلى تصنيفًا في القائمة، ثم تليها بعد ذلك العصافير والببغاوات وبعض أنواع الطيور الأخرى، وهكذا تتدرج القائمة وصولًا إلى السلاحف والأسماك.

وفي تراثنا العربي الممتد عبر مساحات زمنية عريضة، تأتي الخيول في مقدمة الكائنات -من غير الإنسان- التي أقام العربي صداقة معها، وربما يعود ذلك إلى أنها لم تكن تقتصر وظائفها عنده على أنها الدابة أو الراحلة فقط، وإنما كانت الشريك المصاحب والمقاسم في كل مفردات وصيغ الحياة: في الحل والترحال، وفي الحرب والإغارة، وفي الأفراح والأحزان، وفي شؤون الحياة اليومية وأبعادها الاقتصادية، إضافة إلى قيامها بدور الوجاهة الاجتماعية، إذ ما يزال امتلاكها حتى اليوم يحيل إلى مكانة صاحبها بين قومه وأهله وأصحابه.

وقد لاقت الخيل عناية فائقة في الموروث العربي، حيث ارتبطت الحياة بها ارتباط الكل بالجزء، والدال بالمدلول؛ فعندما يذكر أحدهما يستدعي بالضرورة الآخر، وهو ما جعلها أحد مكونات الهوية الدالة والمصاحبة، فحين تذكر مفردات: الفرس أو الحصان أو المهرة أو الجواد أو الأشهب أو الكميت، فإنها تحيل إلى العربي، وحين يذكر العربي فإنه يحيل إليها جميعًا، إذ لا فارسَ عربيًّا بدون فرس، ولا بطلَ شعبيًّا بدون حصان، ولا سيدَ مسودًا دون خيل مسوَّمة تدل عليه.

وقديمًا رأت العرب "أن الخيل أقرب ما تكون من الإنسان مزاجًا، لأن الغالب على مزاجها الحرارة والرطوبة، وعنصرها الهواء"، وهو ما أفاض فيه القول محمد بن عبدالقادر الجزائري، صاحب كتاب "نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد"، يقول:

"اعلم أن الخيل أشرف الحيوانات ذوات الأربع، ولذا أقسم الله بها في كتابه العزيز بقوله "والعاديات ضبحا" فالعاديات جمع عادية وهي سريعة الجري، والضبح صوت نفسها عند العدو، ليس بصهيل ولا حمحمة، "فالموريات قدحا" أي الضاربة بحوافرها الحجارة فتخرج النار منها..".

أما عن أدوار الخيل في التراث العربي، فقد تعددت وتنوعت وتطورت تبعًا لتحولات الحياة من البداوة للحضارة، لكنها عبر ذلك جميعه مثلت أساسًا جوهريًّا لا يمكن الاستغناء عنه، فهي الراحلة والدابة، وهي الثروة والجاه والخيلاء، وهي الفتوة والقوة، وهي العدة والعتاد في الحرب والإغارة، وهي الفتنة والجمال في السلم، وهي المشارك في كل تفاصيل الحياة اليومية وأفراحها وأتراحها.

ولأن الشعر هو الديوان الأكبر المعبر عن كل ملامح الحياة العربية منذ عصور الجاهلية، وبخاصة في القرون التي سبقت الإسلام، إذ ليست هناك مصادر يمكن العودة إليها لمعرفة طبيعة الحياة وأحداثها وعلاقاتها، سوى الشعر بوصفه ديوان العرب وسجل تاريخهم، لذلك كله يمكننا

> ليست هناك مصادر يمكن العودة إليها لمعرفة طبيعة الحياة وأحداثها وعلاقاتها، سوى الشعر بوصفه ديوان العرب وسجل تاريخهم

اليوم الوقوف عبر هذا الشعر على صور وأشكال الصحبة والصداقة التي جمعت العربي مع فرسه، وهي صور في إجمالها تتنوع بين الاعتزاز والفخر بها، والدفاع عنها، وبيان فضائلها، والاستماع إلى شكواها، والائتناس بها، والاعتماد عليها، وغير ذلك مما يلتمسه الصاحب مع صاحبه.

وأول أشكال هذه الصحبة مع الفرس يمكن الوقوف عليه عند عنترة بن شداد في لوحاته المشهدية العديدة الواردة في شعره، ومنه مثلًا ما ذكره عن قضائه الليل على سرج فرسه "وأبيت فوق سراة أدهم ملجم"، أو ما أورده هو بنفسه في استشهاده بخيله (الأدهم، وهو الحصان شديد السواد) حالة حجاجه مع عبلة "هلَّا سألت الخيل يا ابنة مالك"، أو في تعبيره عن علاقة الألفة والمودة والتواصل الشعوري مع فرسه:

لما رأيت القــومَ أقبل جمعُهم ... يتذامرون كررتُ غير مُذَمَّـم
يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَـا ... أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْـرِهِ ... وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلَ بِالــدَّمِ
فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِـهِ ... وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُـمِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ... وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي

فهذا المشهد السينمائي (بما فيه من رؤية بصرية وصوت وحركة ومشهدية) يكاد يكون غير مسبوق في شعر وآداب العالم أجمع، إذ مهما بلغت العلاقة الحميمة بين الإنسان والحيوان، فإنها لم ترق إلى هذه الدرجة من الاتحاد والتوحد، والمشاعر المتبادلة في إحساس الصديق بصديقه، فالفرس مخلص لصاحبه مهما بلغت منه طعنات العدو في صدره، وتدفقت على إثرها شلالات الدماء كأنها حبال مشدودة.

وحين تبلغ منه الآلام مبلغها ويشتد عليه الأمر كله، ينظر إلى صاحبه بعيون ملؤها الدمع، وصوت أنينه صهيل يتحمحم، وتحمل عيناه الكثير من المعاني ومما يمكن أن يقال، غير أنه لو كان يدري ما المحاورة اشتكى، ولو كانت لديه قدرة على الكلام؛ لتكلم وقال الكثير مما يعبر عن الشكوى والأنين والرغبة الصادقة في الإخلاص مهما ساءت به الأحوال.

وفي صورة أخرى يعبر عنترة عن اعتزازه بصديقه "الأبجر ابن نعامة"، وهو اسم فرسه؛ الذي كان يسقيه الحليب قبل أن يسقي زوجته عبلة، فلما أن عاتبته، قال:

لا تحسدِي مُهْرِي وما أَسْقَيتُه ... مــا أنــت إلا في مقَــامٍ أعظـمِ
إن كان حُبُّكِ في الفؤادِ محلَّهُ ... في أعظُمي يجري كما يجري دمي
فاروي صداهُ من الظما فلعله ... ينجيك من هول الغبار المظلـم
إنــي أحاذر أن تقولـي مــرة ... هذا غبـــار ساطـع فتقــدم

بعضُ الصحابة يقلون في قول الشعر، إلا عندما يأتي ذكر الخيل، فإنهم لا يستطيعون الامتناع أو الإقلال، ومن هؤلاء عبدالله بن عباس الصحابي الجليل

فيخونني وقت الطعان فتصبحي   مسببيــة بتحســر وتنــدم

فقد بلغ الفرس من قلبه مكانة الصديق الحامي المساند وقت الشدة، لذا فهو يرعاه وقت السعة، ويشرح لمحبوبته عبلة التي شاعت قصة عشقه لها، أن الفرس ليس مجرد حيوان يرعاه، وإنما هو الذي يحميه ويحميها، ويضرب لها المثل البالغ ذروته في الإقناع الحجاجي، بأن خيانة هذا الصديق ستقضي عليهما معًا، هو بالموت، وهي بالأسر والسبي.. فأي مكانة تلك التي يحتلها صديقه الحصان في قلبه، وأي تقدير ذلك الذي يمكن أن يناله من صاحبه؟!

ولعل ذلك جميعه ليس بمستغربٍ على عنترة الذي بلغت به علاقة الصداقة مع الخيل أن صارت هي أهله وبيته، وظهرها منامته ومستقره:

تُمْسِي وتُصْبح فَوقَ ظَهْر حَشِيّةٍ   وأبيتُ فوقَ سَراةِ أدهمَ مُلْجِمِ
وَحَشِيتي سَرْجٌ على عَبْلِ الشَّوى   نَهْدٍ مراكِلُهُ، نبيلِ المِحْزَمِ

فإذا كانت المحبوبة تنام وتصحو على فراش ناعم محشو، فإن ليل عنترة يقضيه محاربًا على ظهر فرسه القوي الشديد الأسود الأجرد قصير الشعر، وفراشه على فرس غليظ القوائم والعظام (عبل الشوى)، ضخم الجنبين سمين في موضع ربط الحزام.

أما عند امرئ القيس، فنجد -من بين ما نجد- صورة من صور الصحبة العفية العتية، فالشاعر الفارس المقدام يثق في فرسه، وهو عند حسن ظنه، يستيقظان معًا في جوف الليل قبل أن تستيقظ الطيور في أعشاشها، ويصحب فرسه الذي يشبه الوحش في قوته، والذي لا مثيل له في السرعة ذهابًا وإيابًا، يبدو عندما تراه كأنه صخرة يجرفها السيل من أعلى الجبل فيدحرجها إلى الأسفل في سرعة وقوة واكتساح، وهو فرس لونه بين الأسود والأحمر (كميت):

وَقَدْ أغتَدِي وَالطَّيْرُ في وُكُناتِها   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوابِدِ هَيْكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعـًا   كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عَنْ حالِ مَتْنِهِ   كَما زَلَّتِ الصَّفْواءُ بِالْمُتَنَزَّلِ

كل ذلك كان على زمن الجاهلية، فماذا حدث بعد ظهور الإسلام وانتشاره في كل ربوع وأرجاء البلدان؟

الواقع أن الإسلام على الرغم من إلغائه لكثير من الممارسات العربية وبخاصة المرتبط منها بالعادات والتقاليد الاجتماعية المذمومة، إلا أنه قد أبقى على كثير مما رآه يتوافق مع القيم الإسلامية النبيلة، ومنه صحبة الخيل وتمجيدها والعناية بها، بل زاد كل ذلك بسبب ما ورد من تكريم لها في غير موضع من القرآن الكريم وربطه إياها بمعاني العزة والكرامة والقوة والثروة في قوله تعالى من سورة آل عمران (١٤): (وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، كما ذكرتها كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، ومنه قوله عليه السلام: "البركة في ثلاث: في الفرس والمرأة والدار"، وقوله: "الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"، وهو ما ترجمه الجعفي شعرًا بقوله:

الخير ما طلعت شمس وما غربت   معلقٌ بنواصي الخيل معقود

تأتي الخيول في مقدمة الكائنات -من غير الإنسان- التي أقام العربي صداقةً معها

بل نجد بعض الصحابة يقلون في قول الشعر، إلا عندما يأتي ذكر الخيل، فإنهم لا يستطيعون الامتناع أو الإقلال، ومن هؤلاء عبدالله بن عباس الصحابي الجليل، الذي يوصي بحب الخيل والصبر عليها لأنها مصدر العزة والجمال معًا، ويصف أحواله معها بأنه يعدها من أفراد الأسرة مثلها مثل الأبناء والبنات، وأنه يقاسمها المعيشة ويكسوها أجمل الثياب:

أَحِبُّوا الخيلَ واصْطَبروا عليها   فإن العزَّ فيها والجمالا
إذا ما الخيلُ ضَيَّعَها أناسٌ   ربطناها فأشركت العيالا
نقاسمها المعيشةَ كلَّ يوم   ونكسوها البراقعَ والجلالا

■ اللوحة للفنان هوارد روجرز ١٩٣٢

فإذا انتقلنا إلى العصر الأموي، نجد صورة من صور صحبة الخيل لا يمكن الفكاك من أثرها في النفس، ويتمثل ذلك فيما صوره مالك بن الريب عندما استشعر دنو الأجل (وهو يجاهد في بلاد خراسان بعيدًا عن بناته وأهله)؛ فأنشأ يرثي نفسه وصحبته لفرسه، يقول:

تَذَكَّرتُ مَن يَبكي عَلَيَّ فَلَم أَجِد   سِوى السَّيفِ وَالرُّمحِ الرُدَينِيِّ باكِيا
وَأَشقَرَ مَحبوك يَجُرُّ عَنانَهُ   إِلى الماءِ لَم يَترُك لَهُ المَوتُ ساقِيا
يُقادُ ذَليلًا بَعدَما ماتَ رَبُّهُ   يُباعُ بِبَخسٍ بَعدَما كانَ غالِيا

فالثلاثة الذين سيبكونه عند موته غريبًا بعيدًا عن وطنه، هم سيفه ورمحه وفرسه، ولأن هذا الفرس صديقه الذي رافقه في رحلة حياته حتى أواخر لحظاتها، لذا فإنه يتأسى عليه وعلى مصيره بعد رحيله عنه، ويصور وحدته التي سيعاني منها، وعطشه الشديد الذي سيجبره على جر عنانه إلى الماء، إذ من المعروف أن الخيل لا تقبل على الماء إلا بصفير صاحبها، وهنا سوف يحرمه الموت من الصاحب، ومن شهية الإقبال على الماء لولا العطش الذي يجبره فيقبل بلا شهية.. ثم ينتقل الشاعر خطوة للأمام ليصور مصير فرسه الذي شغله عن مصيره هو نفسه، حيث ستتبدل به الأحوال بعد وفاة صاحبه، فيذله الزمان بعد أن كان عزيزًا غاليًا، وربما يصل إلى من لا يقدر قيمته ويعرف أصوله الخالصة، فيبيعه على أنه مجرد حصان بمقابل لا يتساوى مع قدره.

ولا تفوت كل تلك المعاني النبيلة دون أن يلتقطها حكيم العربية (المتنبي) في قصيدته التي مطلعها:

الثلاثة الذين سيبكونه عند موته غريبًا بعيدًا عن وطنه، هم سيفه ورمحه وفرسه؛ صديقه الذي رافقه في رحلة حياته حتى أواخر لحظاتها

أُغالِبُ فيكَ الشَوقَ وَالشَوقُ أَغلَبُ
وَأَعجَبُ مِن ذا الهَجرِ وَالوَصلُ أَعجَبُ

إذ يتحدث عن صداقة الخيل بوضوح وصراحة بعد أن يستعرض علاقة المعايشة التي يتقاسمان فيها وهو وفرسه، والمغامرات التي خاضاها معًا، حين يقول:

وَما الخَيلُ إِلّا كَالصَديقِ قَليلَةٌ   وَإِن كَثُرَت في عَينِ مَن لا يُجَرِّبُ
إِذا لَم تُشاهِد غَيرَ حُسنِ شِياتِها   وَأَعضائِها فَالحُسنُ عَنكَ مُغَيَّبُ

فالخيل الأصيلة مثل الأصدقاء الأوفياء المخلصين، وهم جميعًا قليل في الحياة، وإن كان غير الخبير المجرب لا يستطيع رؤية ذلك، والذي لا يستطيع أن يرى من الخيل غير صفاتها الخارجية وجمال أعضائها، فقد غاب عنه الجوهر، وفاته الكثير من الجمال فيها.

وليس هذا بعجيب على المتنبي الذي قال أبياته التي نستشعر أنها قيلت بالأمس القريب أو في يومنا هذا، وليس في زمن مضى عليه قرابة الخمسين عامًا بعد الألف منذ وفاته، حين قال:

أَعَزُّ مَكانٍ في الدُنى سَرجُ سابِحٍ   وَخَيرُ جَليسٍ في الزَمانِ كِتابُ

فقد جعل صحبة الفرس أعز ما يطلبه الإنسان في حياته، وأجلّ ما يمكنه معايشته، حيث يسبح به قاطعًا بحار الحياة، متنقلًا عبر الأسفار والليالي، وجعل صحبة الكتاب موازية لذلك، فإذا كان الفرس يسبح بنا في الفضاءات، فالكتب تفعل بنا ذلك، وإذا كانت الكتب خير جليس ومؤتنس، فالفرس يفعل معنا ذلك.

أما أبو فراس الحمداني، فيكثر عنده ذكر الخيل على سبيل التفاخر والحكمة والوصف، ولا يخلو كل ذلك من تعبير عن حالة الاتصال والتواصل والصحبة والترافق مع الخيل، ومن ذلك ما يصف به فرسه وهو عائد من الحرب دفاعًا عن قومه، واستقبالهم إياه بالإجلال والتقدير:

وَمُهْرِي لا يَمَسُّ الأَرضَ زَهوًا   كَأَنَّ تُرابَها قُطبُ النِبالِ
كَأَنَّ الخَيلَ تَعرِفُ مَن عَلَيها   فَفي بَعضٍ عَلى بَعضٍ تُعالي

إذ بلغ الاتصال والاتحاد بينهما أن الفرس تشعر بما يداخل الفارس من شعور بالزهو والخيلاء، وكأن الخيل تعرف من عليها، وتتداخل مشاعرهما فيما يحس به كلاهما.

وهكذا.. فإن المتأمل الباحث في ديوان الشعر العربي سيجد الكثير مما يعبر عن هذه العلاقة الفريدة السامية ما يمكنه أن يصنع المجلدات في الحديث عن صحبة وصداقة ومحبة وألفة الخيل، وما تحمله من صفات مشتركة مع الإنسان وطبائعه.